فاس من خلال رحلة أمير بولوني
إلى المغرب سنة 1791
(رحلة Jean Potocki إلى تركيا، مصر، هولندة والمغرب)[1].

محمد بنهاشم[2]

كلية الآداب – ظهر المهراز

أدب الرحلة:

قبل الحديث عن رحلة هذا الأمير و ما أثارته من تساؤلات عن الهدف من ورائها أهي رحلة استكشاف أم رحلة استجمام أم رحلة تجسس في إطار حركة الإستشراق العامة التي نشأت في الغرب. نوجز في سطور علاقة الرحلة بالإستشراق.

فقد تضاعفت خلال القرنين السابع عشر والقرن الثامن عشر والجزء الأكبر من القرن التاسع عشرمعرفة أوربا بشأن البلدان والثقافات النائية، وذلك نتيجة لجهود البلدان التي تعتمد في تجارتها على الملاحة من أجل إيجاد طرق ومراكز تجارية جديدة

وقد بدا ذلك جليا في العديد من الرحلات التي نشرت من قبـل الإنكليـز، والهولنـديين، والفرنسيين، وقد زادت الحاجة خلال القرن الثامن عشر إلى المعرفة و هو ما شجع علىالرحلات بل والمغامرات الشخصية و التي أسس عليها الإستشراق مقولاته على ارضية سياسية ايديولوجية قوامها تأكيـد المركزيـة الغربيـة والتفـوق الغربـي المـستند الـى نظريةجنـسيةعرقية[3]. وادب الرحلات جزء من ميراث الاستشراق الضخم، وما يتضمنه هذا الادب لا يمكن فصله عن الركام الفكري الهائل للمؤسسة الاستشراقية،ان مئات كتب الرحلات واليوميات والرسائل المكتوبة

---

[1] -Jean Potocki, Voyages en Turiquie et en Egypte en Hollande, au Maroc, Fayard 1980.

[2] – أستاذ التعليم العالي كلية الآداب ظهر المهراز فاس.

[3] – سعيد محمد رحيم الإستشراق نصا جريدة الصباح ,مركز الإعلام العراقي سنة 2000

إما على اثر معايشة أومشاهدات باتت رصيد الإستراتيجية الغربية، والمصدر الاهم للمعلومات الاستخبارية عن الشرق. فمهما كانت دوافع الرحالة ونواياه فان ما انتجه من نصوص ،تعرف بالشرق كانت في الحقيقة تقارير تجسس ساعدته على تطويق الشرق واحتوائه، ومن ثم تمثيله والتحكم به.

وكان ينبغي لذلك ان يصور الشرقي كائناً مختلفا اولا، ومتخلفا دونيا ثانيا، وعاجزا عن تجاوز حالته بنفسه ثالثا، ومن غير الممكن ابدا ان يرقى الى مستوى الانا الغربية في انتاجه وابداعه رابعا. ولم يكن الهدف من وراء ابتكار هذه الصورة اقناع المثقف الغربي وكذلك الراي العام في الغرب بذلك حسب وانماإيهام الشرقي ايضا بأن هذه هي صورته، وهذه هي حقيقته في اطلاقها، ولا جدوى من ان يفكر ويعمل خارج هذاالاطار[4].

و قد احتاج كل هذا الى ضمانة الجغرافية وقد اخضعت لتشريح السياسة واغراضها و هو ما تكفل به الرحالة أمثال فولني و بوتوكي و أمثالهم.

الرحلة الى الشرق رحلة الى اعماق الذات ايضا.. الذات التي تطرح على انها طبيعية مقابل غرائبية الشرق.. الذات التي تتبجح بالتفوق مقابل دونية الشرق.. الذات التي تدعي العقلانية مقابل بدائية وفطرية الشرق.. فالمجيء الى الشرق محاولة لترميم ما تصدع من الذات، والتسامي بحس الغرور لان الرحالة يأتي ليحكم بثقة بعد ان يدعي بأنه قد عرف فيلقي باحكامه بلغة واثقة ليصور للقارىء بأنه ذكي ولماح، وانه قد وقع علىحقيقةالشرق او جوانب منها الرحالة في مؤلفه يحكم على الاخر ـــ الشرقي ـــ من خلال منظاره هو، ويقوله بما يعزز ذلك الحكم، ويصير الشرق مختبره الواسع الذي يجوب فيه ملاحظا ومراقبا. محللا ومصنفا، ومستعدا لاصدار حكم.

ان الرحالة وهو يلاحق المشاهد العابرة يلتقط منها ما يوافق الصور القبلية التي ترسبت في لاوعيه بدءاً.. وبهذا يمكن ان يتحول الاستثناء الى قاعدة، والعابر الشاذ الى سمات اساسية لصيقة بذات الشرقي وشخصيته[5] ذالك ما سيفعله الرحالة البولوني عندم حاول تحليل نظام الحكم في المغرب و لم يمضي على مقامه به أكثر من شهر.

---

[4] – نفسه
[5] – نفسه

رحلة الأمير البولوني إلى تركيا مصر و المغرب

صاحب الرحلة هو أمير من أسرة ارستقراطية بولونية، في نهاية القرن الثامن عشر، ترك مجموعة من الرحلات المخطوطة اغلبها في فرنسا، حيث ابتدئ بنشر أول مجموعة في سنة 1980 عن رحلته إلى تركيا، مصر، هولندة والمغرب.

Potocki هذا ليس رحالة عادي سواء بتجواله في أزقة القاهرة والقسطنطينية أو أثناء مشاهداته للحرب الأهلية بهولندة. أو أثناء مقامه بالمغرب في انتظار أن يأذن له المولى اليزيد بلقائه كان دقيقا في وصفه لما يرى للمدن وللآثار، للناس ولحياتهم اليومية، لقد كان هذا الرحالة ذو الثلاثة والعشرين سنة يصغي لنبض التاريخ،في أزقة القاهرة ،تركيا والمغرب في مقاهيمها ومساجدهما كان يستمتع بما يرى و يسمع خاصة و أنه كان ملما بالحضارة الإسلامية.

Potocki لم يكتف بنقل مشاهداته للقارئ بل كان يبحث ويناقش طبيعة الحكم في البلدان التي زارها يتساءل حول أسباب المجاعات التي عاشها المصريون أثناء زيارته لمصر ، كان يحاول فهم طبيعة علاقات الناس فيما بينهم وكل ما يرتبط بالحياة اليومية للسكان الذين زار بلدانهم خاصة بلدان العالم الإسلامي(تركيا ،مصر ،و المغرب).

وقد جمع رحلته الأولى هته في عشرين رسالة.

لقد مهد الرحالة البولوني لزيارته لتركيا بجولة في بعض جزر البحر الأبيض المتوسط المدن المحاذية لها من الجنوب خاصة بعض مدن تونس و ليبيا ففي سنة 1779 كان في مالطة حيث سجل ملاحظاته عن قراصنة البحر الأبيض المتوسط ومنها إلى جربة بتونس التي أمضى فيها ثلاثة أسابيع حيث وصف الآثار الرومانية بالحمامات كما تحدث عن برتقال طرابلس بليبيا الذي فضله كما قال عن برتقال مالطة. بعد ذلك سنجده في بولونيا و منها يبدأ رحلته إلى تركيا ابتداء من 1784.[6]

لماذا الرحلة إلى تركيا و مصر ؟

يبقى لنا أن نتساءل لماذا الرحلة إلى تركيا ومصر في هذه الأثناء أهي رحلة أم مهمة ذهب في اجلها خاصة وان تركيا ومصر هذه الفترة كانت محط اهتمام الدول الأوربية. فزيارته لتركيا جاءت متزامنة مع زيارة Volney لمصر وسوريا سنة 1782.[7]

ويبدو أن الرحلة ربما أتت في سياق رغبة بولونيا لعب دور مع الدول الأوربية في المسألة الشرقية و لتحقيق ذلك لابد لها من تعميق معرفتها بالإمبراطورية العثمانية التي لا يعرف

[6] –Voyages, pp 11-12.
[7] – Voyages, p12.

عنها البولونيون إلا ما وصلهم عن طريق المؤلف القديم ل Rycant المنشورسنة 1666[8] وما يؤكد هذا الإستنتاج كون سنة 1782كانت سنة إرسال بعثة تحت إشراف البولوني Mileaszo لتكوين مجموعة من المختصين في اللغات الشرقية وهي السنة التي ولدت فيها فكرة تكوين مجموعة من المختصين في اللغات الشرقية لدى معظم الدول الأوربية والاستغناء عن التراجمة الموسميين والعرضيين و هو مشروع جاء ليحل محل مدرسة الجزويت Jesuites المؤسسة سنة 1736[9].

من تركيا انتقل potocki إلى مصر و قد عاش أجواء المجاعة التي ضربت مصرحيث وصف الجوعى والموتى من الأطفال والشيوخ، منتقدا سلطة الباي كما تحدث عن ثروات البلاد وتجارة الخشب التي يحتكرها تجار الباي (الرسالة 11) [10]. كما لم يهمل الحديث عن مشكل السقي والماء في الإسكندرية مؤكدا على أن من يمتلك الماء في تلك البلاديمتلك السلطة وان التوزيع غير العادل للماء كان سببا في العديد من الثورات (الرسالة 12). [11]

لقد كانت الرحلة الأولى لـــ Potocki والتي جمعها في عشرين رسالة سهلة وممتعة كتبت باللغة الفرنسية، تضمنت مشاهدات وحكم، ومحاولة لفلسفة الحياة والتاريخ خاصة وأنه التقى بالعديد من الدراويش والمتصوفة واطلع علىالعديد من كتب القداما في التاريخ خاصة كتابات هيرودوت. [12]

الرحلة إلى المغرب

لقد أثيرت العديد من التساؤلات حول الهدف من الرحلة خاصة وأنها جاءت مفاجئة فبعدما كان هذا الأمير منشغلا في الأحداث السياسية التي عرفتها بولونيا في عهد الملك starislas auguste خاصة مسألة إعداد دستور البلاد. نجد هذا الأمير يقرر الرحيل إلى المغرب للقاء السلطان المولى اليزيد كما أن الرحلة تتحدث عن رسالة إلى السلطان وهو يدفع إلى التساؤل عن أسباب و دوافع الرحلة أهي من أجل مهمة خاصة أم هروب من الواقع البولوني لقد كانت غاية الأمير البولوني هي إيصال رسالة إلى السلطان خاصة و أنه ذكر أن العديد من أمسياته بمدريد

---

[8] – Voyages, p13.
[9] – Voyages, p13.
[10] – Potocki Voyages, p16
[11] –Potocki Ibid, p 16.
[12] – Potocki Ibid, p 16.

قضاها مع سفير المغرب بإسبانيا الذي سلمه رسالة توصية من طرفه يحملها مع رسالته للسلطان.[13]

و مرة أخرى لقد تزامنت زيارة Potocki للمغرب مع زيارة سفير السويد وهما سفارتان على ما يبدو لتهنئة سلطان المغرب بمناسبة جلوسه على عرش المغرب وللقيام بهذه المهمة فقد انتظر الأمير شهرا كاملا للقائه[14] بمدينة سلا في غشت1791 .

لقد حاول Potocki أثنا مقامه بالمغرب تحليل النظام السياسي المغربي وذلك بمساعدة أحد الأشخاص المرموقين كما قال ويبدو انه ابن عثمان سفير المغرب لإسبانيا[15] وقد حاول Potocki تسجيل تأملاته عن الجغرافيا العادات والتقاليد عن العرب أهم رحل أم مستقرون وما هو النظام الأمثل بالنسبة لهم.

لقد كانت رحلة Potocki إلى المغرب إضافة إلى المهمة الخاصة التي كلف بها مناسبة للتأمل وللمعرفة كما جاء عند بطلموس بأننا لا نتعلم اللغات الشرقية للتحدث بها ولكن لأجل المعرفة[16] ولأجل ذلك ولتعميق معرفته بالعادات والتقاليد المغربية ورغم قصر إقامته بالمغرب فقد اطلع كما جاء في مذكراته على كتابات Pellow و Stuard، Saint Ollond و Chenier و Procope و Marmol [17].

لقد كان يبحث عن الحقيقة في التنوع فالشعوب تتكون من الناس. والناس مجموعة من المتناقضات على حد تعبيره[18].

منذ البداية يحدثنا Potocki عن تفاصيل الحياة اليومية في المدينة المغربية عن الأسواق والأثواب المطرزة عن وسائل النقل، عن الباعة عن فسيفساء البشر كما لم يهمل الحديث عن الطيور و الأسماك و حتى الحشرات.

لقد ترك Potocki أيضا بعض الرسومات التي كان يرسمها بقلم الرصاص عن المشاهد والمناظر التي أعجبته و أغرته برسمها كما نجد بمذكراته و رسائله رغبة الجامحة لجمع التحف النادرة و خاصة الكتب فقد بحث في المغرب عن تلموذ Rabi jahoudach-Levi el Khorazi كما بحث عن كتاب ألف ليلة وليلة.[19]

---

[13] – Potocki Ibid, p 31.
[14] – Potocki Ibid, p 31.
[15] – Potocki Ibid, p 33.
[16] – Potocki Ibid, p 34
[17] – Potocki Ibid, p 37.
[18] – Potocki Ibid, p 38
[19] – Potocki Ibid, p 38.

ماذا عن مدينة فاس 8 يوليوز 1791

لقد وجدها كما وصفها من سبقوه ،فاتحة حضنها للوافد بحنو ليكشف سر تميزها الأزلـــي بين مدائن الغرب والشرق، اذ تبتلعه دروبها الظليلة والندية المتشعبة الى ما لانهاية في جولة لن ينساها ما طال به العمر. أما حين يحمر شفق المغيب ويشعل بحمرته الأزلية الساحرة ســقوف البيوت المتعبة والقباب والصوامع، فان منظر فاس العتيقة من فوق «باب البطحاء» وهي تــستعد لاستقبال ليل جديد متوهجة بآلاف الأضواء ومتمايلة على ايقاع نسيم المساء الذي يداعب أشـــجار الزيتون، لا شبيه له! وفي كل يوم يصنعه الله، كانت فاس منذ أربعة عشر قرنا وســتبقى مدينـــة جامعة القرويين والثمانمائة صومعة والمدارس العتيقة والمتاحف التي حفظت ذاكــرة الأنـــدلس، فأعلنتها اليونسكو تراثا عالميا منذ العام 1976.

لقد افتتن الأمير البولوني بفاس بأبنيتها و بأسوارها بناسها و بأسواقها بدورها وقصورها التي ذكرته بما رآه في إسبانيا لقد زار القيصرية التي تسمى في المشرق بالبازار بدكاكينها ومعروضاتها الجميلة خاصة الأجواخ والأثواب كما زار مدابغ الجلود المغربية بألوانها الزاهية المشهورة كما تحدث عن المطرزات التي تضاهي تلك التي وجدها بالقسطنيطنية. لقد وصف الدور ذات الأبهاء الواسعة المحافضة على هندستها الأندلسية.

لقد أعجب أيضا بالمنادين الذين يبيعون البضائع في المزادات العلنية وهي عادة عربية ذكرته بما جاء في كتاب ألف ليلة وليلة.[20]

كما لم يفته الحديث عن غنى الأسر الفاسية... وثقافة أبنائها. خاصة كما قال أن أغلـــبهم منحدر من أسر أندلسية. فهو كما قال لم يجد صعوبة في التواصل معهم فأغلبهم يتحـــدثون إلـــى جانب العربية الإسبانية أو التركية مما سمح له بتمضية أمسيات رائقة معهم.

كما لاحظ التشابه الكبير بين قصر السلطان المزين بالقرميد الأخضر وما رآه بقصر الحمراء بغرناطة. و لم ينس الحديث عن ازدهار الحياة الثقافية بالمدينة مفصلا الحديث عن المدارس و المقررات الدراسية خاصة الجبر و الفلك.[21]

إن شغف هذا الأمير بالمغرب جعله يعود إلى بولنيا لكن بعد أن قطع على نفسه عهدا بأن يعود لزيارته

---

[20] – Potocki Ibid, p 40
[21] – Potocki Ibid, p 191.